مقدمة المصنف

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل على محمد النبى الأمى وعلى آل محمد وسلم[١]

الحمد لله ربِّ العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عُدوان إلا على الظالمين ، ولا إله إلا الله إله الأولين والآخرين ، وقيوم السموات والأرضين ، ومالك يوم الدين الذي لا فوز إلا في طاعته ، ولا عز إلا في التذلل لعظمته، ولا غنى إلا في الافتقار إلى رحمته ، ولا هدى إلا في الاستهداء بنوره، ولا حياة إلا في رضاه ولا نعيم[٢] إلا في قربه ، ولا صلاح للقلب، ولا فلاح إلا في الإخلاص له ، وتوحيد حبه ، الذي إذا أُطيع شكر ، وإذا عُصي تاب وغفر ، وإذا دُعي أجاب ، وإذا عومل أثاب .

[والحمد لله الذي شهدت له بالربوبية جميع مخلوقاته وأقرَّت له بالإلهية جميعُ مصنوعاته، وشهدت بأنه الله الذي لا إله إلا هو بما أودعها من عجيب صنعه[٣] وبديع آياته ، وسبحان الله وبحمده ؛ وعدد خلقه ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه، ومداد كلماته ، ولا إله إلا الله وحده ، لا شريك[٤] له في إلهيته ، كما لا شريك له في ربوبيته ، ولا شبيه له في ذاته ولا في أفعاله ولا في صفاته][٥] .

والله أكبر كبيرا ، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا ، وسبحان من سبحت له السموات وأملاكها ، والنجوم وأفلاكها ، والأرض وسكانها ، والبحار

---

(١) فى ق : « لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ » ، وما أثبتناه من ح ، خ .

(٢) فى ق ، ح : « نعم »، وما أثبتناه من خ .

(٣) فى ح : « من عجائب صنعته وبدائع » ، وما أثبتناه من خ، ق .

(٤) فى ح : « وزير » ، وما أثبتناه من خ، ق .

(٥) ليست فى : ق، وما أثبتناه من ح ، خ .

وحيتانها ، والنجوم والجبال ، والشجر والدواب والآكامُ [١] والرمال، وكل رطب ويابس ، وكل حي وميت ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء] .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له كلمة قامت بها الأرض والسموات، وخلقت لأجلها جميع المخلوقات ، وبها أرسل الله تعالى رسله ، وأنزل كتبه ، وشرع شرائعه، ولأجلها نصبت الموازين ، ووضعت الدواوين ، وقام سوق الجنة والنار ، وبها انقسمت الخليقة إلى [٢] المؤمنين والكفار ، والأبرار والفجار .

فهى منشأ [٣] الخلق والأمر ، والثواب والعقاب ، وهي الحق الذي خلقت له الخليقة ، وعنها وعن حقوقها [٤] السؤال والحساب، وعليها يقع الثواب والعقاب ، وعليها نصبت القبلة ،وعليها أسست الملة ، ولأجلها جُرِّدت سيوف الجهاد ، وهي حق الله على جميع العباد ، فهى كلمة الإسلام ، ومفتاح دار السلام، عنها يسأل الأولون والآخرون، فلا تزول قدما العبد [٥] بين يدى الله حتى يسأل عن مسألتين : ماذا كنتم تعبدون [٦] ؟ وماذا أجبتم المرسلين ؟

فجواب الأولى بتحقيق « لا إله إلا الله » معرفة وإقرارا وعملا .

وجواب الثانية بتحقيق « أن محمدا رسول الله » معرفة وإقرارا وانقيادا وطاعة .

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وأمينه على وحيه وخيرته من خلقه ، وسفيره

---

(١) جمع الأكُم، وهى: التلال والروابى .
(٢) فى ح : « بين » ، وما أثبتناه من خ ، ق .
(٣) فى ح : « مبدأ » ، وما أثبتناه من خ، ق .
(٤) فى خ : « حقوق » ، وما أثبتناه من ح ، ق .
(٥) فى خ: «فلا يزول قدم عبد»، وما أثبتناه من ح ، ق .
(٦) فى خ : « تعملون » ، وما أثبتناه من ح ، ق .

بينه وبين عباده ، المبعوث بالدين القويم ، والمنهج المستقيم ، أرسله الله رحمة للعالمين، وإماما للمتقين ، وحجة على الخلائق أجمعين ، أرسله على حين فترة من الرسل ، فهدى به إلى أقوم الطرق ، وأوضح السبل ، وأفرض[١] على العباد طاعته ، وتعزيره[٢] ، وتوقيره، ومحبته ، والقيام بحقوقه، وسد دون جنته الطرق ، فلن تفتح لأحد إلا من طريقه ، فشرح له صدره ، ورفع له ذكره ، ووضع عنه وزره ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره .

ففي المسند من حديث[٣] عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذِّلة والصغار على من خالف أمري ، ومن تشبه بقوم فهو منهم»[٤].

وكما أن الذلة مضروبة على من خالف أمره ، فالعزة لأهل طاعته ومتابعته، قال الله سبحانه : ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقال تعالى : ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد:٣٥] ، وقال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ

---

(١) فى ق: « افترض » ، وما أثبتناه من ح ، خ .

(٢) أى: نصره وتعظيمه، ومنه قوله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفتح].

(٣) بعدها فى المطبوع : « أبى منيب الجرشى عن » وهى زيادة وإن كانت صحيحة ، إلا أننا التزمنا ما فى المخطوطات للأمانة العلمية .

(٤) أحمد (٢/ ٥٠) ، وقال الشيخ أحمد شاكر (٥١١٤) : « إسناده صحيح » ، وقال الهيثمى فى المجمع (٦/ ٥٢): « وفيه عبد الرحمن بن ثابت ، وثقه ابن المدينى وغيره ، وضعفه أحمد وغيره ، وبقية رجاله ثقات » .

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ [الأنفال] أي :الله [١] وحده كافيك وكافي أتباعك ، فلا تحتاجون معه إلى أحد .

وهنا تقديران:

أحدهما :أن تكون الواو عاطفة لـ « من » على الكاف المجرورة ، ويجوز العطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجار على المذهب المختار ، وشواهده كثيرة ، وشبه المنع منه واهية .

والثاني :أن تكون الواو وَاوَ « مع » وتكون من في محل نصب عطفا على الموضع، فإن «حسبك » في معنى كافيك أي : الله يكفيك ، ويكفي من اتبعك، كما تقول العرب : حسبك وزيدا درهم ، قال الشاعر:

إذا كانت الهيْجاءُ وانشقَّت العَصَا فحسْبُك والضَّحَّاكَ سيفٌ مُهنّدٌ

وهذا أصح التقديرين .

وفيها [٢] تقدير ثالث :أن تكون [من] [٣] في موضع رفع بالابتداء [٤] أي : ومن اتبعك من المؤمنين فحسبهم الله .

وفيها تقدير رابع ، وهو خطأ من جهة المعنى ، وهو [٥] : أن تكون « من » موضع رفع عطفا على اسم الله ، ويكون المعنى : حسبك الله وأتباعك ، وهذا وإن قاله بعض الناس، فهو خطأ محض ، لا يجوز حمل الآية عليه ، فإن الحسب و الكفاية

---

(١) في ق : «إنه » ، وما أثبتناه من ح ، خ .
(٢) في ح : « فيها » ، وما أثبتناه من خ ، ق .
(٣) ليست في ق ، وما أثبتناه من ح ، خ .
(٤) في خ : « على الابتداء » ، وما أثبتناه من ح ، ق .
(٥) في خ : « وهي » ، وما أثبتناه من ح ، ق .

لله وحده ، كالتوكل والتقوى والعبادة، قال الله تعالى : ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنفال]، ففرق بين الحسب والتأييد، فجعل الحسب له وحده ، وجعل التأييد له بنصره وبعباده ، وأثنى سبحانه على أهل التوحيد من عباده حيث أفردوه بالحسب، فقال تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران] .

ولم يقولوا : حسبنا الله ورسوله ، فإذا كان هذا قولهم ، ومدح الرب تعالى لهم بذلك، فكيف يقول لرسوله : الله وأتباعك حسبك[1] ، وأتباعه قد أفردوا الرب تعالى بالحسب، ولم يشركوا بينه وبين رسوله فيه، فكيف يشرك بينهم وبينه في حسب رسوله؟! هذا من أمحل المحال، وأبطل الباطل.

ونظير هذا قوله سبحانه : ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة] فتأمل كيف جعل الإيتاء لله ولرسوله[2] .

كما قال سبحانه :﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر : ٧] ، وجعل الحسب له وحده ، فلم يقل: وقالوا : حسبنا الله ورسوله ، بل جعله خالص حقّه ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة] ولم يقل : وإلى رسوله، بل جعل الرغبة إليه وحده كما

---

(١) في ح : «لرسول الله اتباعه حسبك » ، وما أثبتناه من خ ، ق .

(٢) في ق : « إتائه الله ولرسوله » ، وما أثبتناه من ح ، خ .

قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨ ﴾[الشرح] فالرغبة ، والتوكل ، والإنابة والحسب لله وحده ، كما أن العبادة والتقوى، والسجود لله، والنذر والحلف لا يكون إلا له سبحانه وتعالى ، ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر : ٣٦] .

والحسب : هو الكافي، فأخبر سبحانه وتعالى أنه وحده كاف عبده، فكيف يجعل أتباعه مع الله في هذه الكفاية ؟ ! والأدلة الدالة على بطلان هذا التأويل الفاسد أكثر من أن تذكر هاهنا .

والمقصود:أن بحسب [١]متابعة الرسول تكون العزة، والكفاية والنصرة ، كما أن بحسب متابعته تكون الهداية، والفلاح، والنجاة ، فالله تعالى علق سعادة الدارين بمتابعته ، وجعل شقاوة الدارين في مخالفته ، فلأتباعه الهدى والأمن ، والفلاح والعزة [٢]، والكفاية والنصرة ، والولاية والتأييد ، وطيب العيش في الدنيا والآخرة، ولمخالفيه الذلة والصغار ، والخوف والضلال ، والخذلان والشقاء في الدنيا والآخرة ، وقد أقسم ﷺبأنه [٣]: لا يؤمن أحدكم حتى يكون هو أحب إليه من [نفسه، و] [٤]ولده، ووالده، والناس أجمعين [٥].

وأقسم الله سبحانه بأنه لا يؤمن من لم يحكمه في كل ما تنازع فيه هو وغيره، ثم يرضى بحكمه ، ولا يجد في نفسه حرجا مما حكم به ، ثم يسلم له تسليما ، وينقاد له

---

(١) فى خ : « تجب » ، وما أثبتناه من ح ، ق .

(٢) فى خ : « العز » ، وما أثبتناه من ح ، ق .

(٣) فى ح ، ق : « بأن » ، والمثبت من خ .

(٤) ساقط من المطبوع .

(٥) أحمد (٣/ ٢٠٧، ٤/ ٢٣٣) ، والبخارى فى الإيمان (١٥) ، ومسلم فى الإيمان (٤٤/ ٧٠) ، والنسائى فى الإيمان وشرائعه (٥٠١٣) ، وابن ماجه فى المقدمة (٦٧) .

انقيادا [١] ، وقال تعالى :﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب : ٣٦] ، فقطع سبحانه وتعالى التخيير بعد أمره وأمر رسوله ، فليس لمؤمن أن يختار شيئا بعد أمره ﷺ ، بل إذا أمر فأمره حتم ، وإنما الخيرة في قول غيره إذا خفي أمره ، وكان ذلك الغير [٢] من أهل العلم به ، وبسنته.

فبهذه [٣] الشروط يكون قول غيره سائغ الاتباع لا واجب الاتباع ، فلا يجب على أحد اتباع قول أحد سواه، بل غايته أن يسوغ له اتباعه ، ولو ترك الأخذ بقول غيره [٤] لم يكن عاصيا لله ورسوله .

فأين [٥] هذا ممن يجب على جميع المكلفين اتباعه ، ويحرم عليهم مخالفته ، ويجب عليهم ترك كل قول لقوله؟ فلا حكم لأحد معه ، ولا قول لأحد معه ، كما لا تشريع لأحد معه ، وكل من سواه،فإنما يجب اتباعه على قوله ، إذا أمر بما [٦] أمر به، و نهى عما نهى عنه ، فكان مبلغا محضا ومخبرا لا منشئا ومؤسسا .

فمن أنشأ أقوالا وأسس قواعد بحسب فهمه وتأويله ، لم يجب على الأمة اتباعها ، ولا التحاكم إليها ، حتى تعرض على ما جاء به [٧] ، فإن طابقته ، ووافقته وشهد لها بالصحة قُبلت حينئذ، وإن خالفته وجب ردها واطّراحها، وإن لم يتبين فيها أحد الأمرين جعلت موقوفة ، وكان أحسن أحوالها أن يجوز الحكم والإفتاء بها

---

(١) وذلك قوله تعالى :﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ..... تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] .

(٢) فى ق : « الخير » ، وما أثبتناه من ح ، خ .

(٣) فى خ ، ق : « فهذه » ، وما أثبتناه من ح .

(٤) فى خ ، ق : « بقوله» ، وما أثبتناه من ح .

(٥) فى خ : « فإن»، وما أثبتناه من ح ، ق .

(٦) فى خ : « مما » ، وما أثبتناه من ح ، ق .

(٧) الضمير فى «به» يعود إلى النبى ﷺ .

وتركه ، وأما أنه يجب ويتعين فكلا ولا [١].

وبعد، فإن الله سبحانه وتعالى هو المنفرد [٢] بالخلق ، والاختيار من المخلوقات ، قال تعالى : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص : ٦٨] وليس المراد هاهنا بالاختيار الإرادة التي يشير إليها المتكلمون ، بأنه الفاعل المختار - وهو سبحانه - كذلك ، ولكن ليس المراد بالاختيار هاهنا هذا المعنى، وهذا الاختيار داخل فى قوله : ﴿يَخْلُقُ﴾ فإنه لا يخلق إلا باختياره ، وداخل فى قوله : ﴿مَا يَشَآءُ﴾ ، فإن المشيئة هى الاختيار وإنما المراد بالاختيار هاهنا : الاجتباء والاصطفاء ، فهو اختيار بعد الخلق والاختيار العام اختيار قبل الخلق ، فهو أعم وأسبق ، وهذا أخص ، وهو متأخر فهو اختيار من الخلق، والأول اختيار للخلق .

وأصح القولين أن الوقف التام على قوله : ﴿وَيَخْتَارُ﴾ ويكون ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ نفيا أي : ليس هذا الاختيار إليهم ، بل هو إلى الخالق وحده، فكما أنه المنفرد بالخلق، فهو المنفرد بالاختيار منه، فليس لأحد أن يخلق، ولا أن يختار سواه ، فإنه ـ سبحانه ـ أعلم بمواقع اختياره، ومحال رضاه، ما يصلح للاختيار مما لا يصلح له، وغيره لا يشاركه في ذلك بوجه .

وذهب بعض من لا تحقيق عنده ولا تحصيل إلى أن ما من قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ موصولة وهي مفعول . ﴿وَيَخْتَارُ﴾ أي: ويختار الذي لهم الخيرة، وهذا باطل من وجوه .

---

(١) فى ح ، خ : « ولما » ، وما أثبتناه من ق .

(٢) فى ح ، خ : « المتفرد » ، وما أثبتناه من ق .

أحدها : أن الصلة حينئذ تخلو من العائد؛ لأن ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾ مرفوع بأنه اسم كان، و﴿لَهُمُ﴾ خبر[1]، فيصير المعنى : ويختار الأمر الذي كان الخيرة لهم، وهذا التركيب محال من القول .

فإن قيل : يمكن تصحيحه بأن يكون العائد محذوفا ويكون التقدير : ويختار الذي كان لهم الخيرة فيه، أي : ويختار الأمر الذي كان لهم الخيرة في اختياره .

قيل : هذا يفسد من وجه آخر ، وهو أن هذا ليس من المواضع التي يجوز فيها حذف العائد ، فإنه إنما يحذف مجرورًا ، إذا جر بحرف، جُرَّ الموصول بمثله مع اتحاد المعنى ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [المؤمنون] ونظائره ، ولا يجوز أن يقال : جاءني الذي مررت ، ورأيت الذي رغبت، نحوه .

الثاني : أنه لو أريد هذا المعنى لنصب « الخيرة » وشغل فعل الصلة بضمير يعود على الموصول، فكان يقول : ويختار ما كان لهم الخيرة، أي : الذي كان هو عين الخيرة لهم، وهذا لم يقرأ به أحد البتة ، مع أنه كان وجه الكلام على هذا التقدير .

الثالث : أن الله سبحانه يحكي عن الكفار اقتراحهم في الاختيار،و إرادتهم أن تكون الخيرة لهم ، ثم ينفي هذا سبحانه عنهم ، ويبين تفرده بالاختيار كما قال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف] .

---

(١) في ح ، خ : « الخبر » ، وما أثبتناه من ق .

فأنكر عليهم سبحانه تخيرهم عليه ، وأخبر أن ذلك ليس إليهم، بل إلى الذي قسم بينهم معايشهم المتضمنة لأرزاقهم ومدد آجالهم ، فكذلك هو الذي يقسم فضله بين أهل الفضل على حسب علمه بمواقع الاختيار ومن يصلح له ممن لا يصلح ، هو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات، وقسم بينهم معايشهم، ودرجات التفضيل ، فهو القاسم ذلك وحده لا غيره .

وهكذا هذه الآية بين فيها انفراده بالخلق والاختيار ، وأنه سبحانه أعلم بمواقع اختياره، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِۥ [1] ﴾[الأنعام : ١٢٤] ، أي : الله أعلم بالمحل الذي يصلح لاصطفائه، وكرامته وتخصيصه بالرسالة، والنبوة دون غيره .

الرابع : أنه نزه نفسه سبحانه عما اقتضاه شركهم من اقتراحهم واختيارهم، فقال : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [القصص]، ولم يكن شركهم مقتضيا لإثبات خالق سواه حتى نزه [2] نفسه عنه، فتأمله فإنه في غاية اللطف .

الخامس: أن هذا نظير قوله تعالى في الحج : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ ثم قال : ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا

---

(١) هكذا فى جميع النسخ وهى قراءة كثير من القراء ، وفى المطبوع : « رسالته » وهى مخالفة للمخطوطات . وعذر هؤلاء أنهم لم يقابلوا النص على مخطوط .

(٢) فى خ : « ينزه » ، وما أثبتناه من ح ، ق .

خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ ﴾.

وهذا نظير قوله في القصص: ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

ونظير قوله في الأنعام: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الآية: ١٢٤].

فأخبر في ذلك كله عن علمه المتضمن لتخصيصه مَحَالَّ اختياره بما خصصها به لعلمه بأنها تصلح له دون غيره،فتدبر السياق في هذه الآيات تجده منتظماً[1] لهذا المعنى دائرًا عليه، والله أعلم .

السادس : أن هذه الآية مذكورة عقيب قوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص] فكما خلقهم وحده سبحانه ، اختار منهم من تاب وآمن وعمل صالحا، فكانوا صفوته من عباده ، وخيرته من خلقه ، وكان هذا الاختيار راجعا إلى حكمته وعلمه سبحانه لمن هو أهل له، لا إلى اختيار هؤلاء المشركين واقتراحهم ، فسبحان الله وتعالى عما يشركون .

فصل

وإذا تأملت أحوال [هذا][2] الخلق رأيت هذا الاختيار والتخصيص فيه دالا على ربوبيته تعالى ووحدانيته ، وكمال حكمته وعلمه وقدرته،وأنه الله الذي لا إله

(١) في ح : « متضمناً » ، وما أثبتناه من خ ، ق .
(٢) ليست في ح ، ق ، وما أثبتناه من خ .

إلا هو ، فلا شريك له يخلق كخلقه ، ويختار كاختياره ، ويدبر كتدبيره ، فهذا الاختيار ، والتخصيص المشهود أثره في هذا العالم من أعظم آيات ربوبيته ، وأكبر[١] شواهد وحدانيته ، وصفات كماله وصدق رسله ، فنشير فيه إلى شيء يسير يكون منبها[٢] على ما وراءه ، دالا على ما سواه.

فخلق الله السموات سبعا فاختار العليا منها ، فجعلها مستقر المقربين من ملائكته، واختصها بالقرب من كرسيه، ومن عرشه،وأسكنها من شاء من خلقه، فلها مزية وفضل على سائر السموات ، ولو لم يكن إلا قربها منه تبارك وتعالى .

وهذا التفضيل والتخصيص مع تساوي مادة السموات من أبين الأدلة على كمال قدرته وحكمته ، أنه يخلق ما يشاء ويختار ، ومن هذا تفضيله سبحانه جنة الفردوس على سائر الجنات[٣][٤]، وتخصيصها بأن جعل عرشه سقفها، وفي بعض الآثار: «إن الله سبحانه غرسها بيده، واختارها لخيرته من خلقه»[٥].

ومن هذا اختياره من الملائكة المصطفين منهم على سائرهم كجبريل وميكائيل وإسرافيل، وكان النبي ﷺ يقول : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف[٦] فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط

---

(١) في ح : « وأكمل » ، وما أثبتناه من خ ، ق .

(٢) في خ : « تنبيها » ، وما أثبتناه من ح ، ق .

(٣) في ح : « الجنان » ، وفي : ق : « جنان » ، وما أثبتناه من خ .

(٤) البخاري في التوحيد (٧٤٢٣) : يقول ﷺ : « إن في الجنة مائة درجة ... فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس ؛ فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة» .

(٥) البيهقي في البعث والنشور (٢٣٣) ، وفي شعب الإيمان (٥٥٩٠) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣/ ٩٥)، وقال : « غريب من حديث داود عن أنس ﷺ » .

(٦) في خ : « أُخلف » ، وما أثبتناه من ح ، ق .

مستقيم»[١] .

فذكر هؤلاء الثلاثة من الملائكة ؛ لكمال اختصاصهم واصطفائهم وقربهم من الله ، وكم من ملك غيرهم في السموات فلم يسم إلا هؤلاء الثلاثة فجبريل : صاحب الوحي الذي به حياة القلوب والأرواح ،وميكائيل : صاحب القطر الذي به حياة الأرض والحيوان والنبات، وإسرافيل : صاحب الصور الذي إذا نفخ فيه أحيت نفخته بإذن الله الأموات ، وأخرجتهم من قبورهم .

وكذلك اختياره سبحانه للأنبياء من ولد آدم عليه وعليهم الصلاة والسلام، وهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ، واختياره الرسل منهم؛ وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر على ما في حديث أبي ذر الذي رواه أحمد وابن حبان في صحيحه[٢] واختياره أولي العزم منهم ، وهم الخمسة المذكورون في سورتى الأحزاب والشورى في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾[الأحزاب : ٧] وقال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى:١٣] واختار[٣] منهم الخليلين: إبراهيم، ومحمدا صلى الله عليهما وسلم .

ومن هذا اختياره سبحانه ولد إسماعيل من أجناس بني آدم ، ثم اختار منهم بني كنانة ابن خزيمة ، ثم اختار من ولد كنانة قريشا ، ثم اختار من قريش بني

---

(١) مسلم فى صلاة المسافرين وقصرها (٧٧٠/ ٢٠٠)، وأبو داود فى الصلاة (٧٦٧) ، والترمذى فى الدعوات (٣٤٢٠) ، وقال : « حسن غريب » والنسائى فى قيام الليل وتطوع النهار (١٦٢٥)، وابن ماجه فى إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣٥٧) .

(٢) أحمد (٥/ ١٧٨، ١٧٩) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١/ ١٦٥) : « وفيه المسعودى وهو ثقة، ولكنه اختلط » ، وابن حبان فى الموارد فى كتاب العلم (٩٤) .

(٣) فى ح : « واختياره » ، وما أثبتناه من ح ، ق .

هاشم، ثم اختار من بنى هاشم سيد ولد آدم محمدا ﷺ[١].

وكذلك اختار[٢] أصحابه من جملة العالمين، واختار منهم السابقين الأولين، واختار منهم أهل بدر وأهل بيعة الرضوان، واختار لهم من الدين أكمله، ومن الشرائع أفضلها، ومن الأخلاق أزكاها وأطهرها.

واختار أمته ﷺ على سائر الأمم، كما في مسند الإمام أحمد وغيره من حديث بَهْز ابن حكيم بن معاوية بن حيدة، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «أنتم تُوفُونَ سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله»[٣]، قال علي بن المديني وأحمد: حديث بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده صحيح.

وظهر أثر هذا الاختيار في أعمالهم، وأخلاقهم، وتوحيدهم ومنازلهم في الجنة، ومقامهم في الموقف، فإنهم أعلى من الناس على تل فوقهم يشرفون عليهم، وفي الترمذي: من حديث بريدة بن الحصيب[٤] الأسلمي، قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة عشرون ومائة صف[٥] ثمانون منها من هذه الأمة، وأربعون من سائر الأمم» قال الترمذي: هذا حديث حسن[٦].

والذي في الصحيح: من حديث أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ في حديث

---

(١) أحمد (٤/ ١٠٧)، ومسلم فى الفضائل (٢٢٧٦/ ١)، والترمذى فى المناقب (٣٦٠٥)، وقال: «حسن صحيح».

(٢) فى خ: «ولذلك اختاره»، وما أثبتناه من ح، ق.

(٣) أحمد (٤/ ٤٤٧)، والترمذى فى تفسير القرآن، (٣٠٠١)، وقال: «حسن»، وابن ماجه فى الزهد (٤٢٨٨)، والدارمى فى الرقاق (٢٧٦٠)، والحاكم فى المستدرك (٤/ ٨٤)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبى، وحسنه الشيخ الألبانى.

(٤) فى خ: «الخصيب»، وما أثبتناه من ح، ق.

(٥) فى خ: «ضعف»، وما أثبتناه من ح، ق.

(٦) الترمذى فى صفة الجنة (٢٥٤٦)، وقال: «حسن»، وصححه الشيخ الألبانى.

بعث النار:« والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة»[١]ولم يزد على ذلك، فإما أن يقال : هذا أصح ، وإما أن يقال : النبي ﷺ طمع أن[٢] تكون أمته شطر أهل الجنة ، فأعلمه ربه تعالى أنهم ثمانون صفا من مائة وعشرين [صفا] ، فلا تنافي بين الحديثين ، والله أعلم .

ومن تفضيل الله سبحانه لأمته واختياره لها[٣]: أنه وهبها من العلم والحلم ما لم يهبه لأمة سواها ، وفي مسند البزار وغيره: من حديث أبي الدرداء ، قال : سمعت أبا القاسم[٤] ﷺ يقول : « إن الله تعالى قال لعيسى ابن مريم : إني باعث من بعدك أمة ، إن أصابهم ما يحبون حمدوا وشكروا ، وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا ، ولا حلم ولا علم ، قال : يا رب ، كيف هذا ولا حلم ولا علم ؟ قال : أعطيهم من حلمي و[من] علمي »[٥] .

ومن هذا اختياره سبحانه وتعالى من الأماكن والبلاد خيرها وأشرفها ، وهي البلد الحرام ، فإنه سبحانه وتعالى اختاره لنبيه[٦] ﷺ ، وجعله مناسك لعباده ، وأوجب عليهم الإتيان إليه من القرب والبعد من كل فج عميق ، فلا يدخلونه إلا متواضعين متخشعين متذللين ، كاشفي رؤوسهم ، متجردين عن لباس أهل الدنيا، وجعله حرما آمنا ، لا يسفك فيه دم ، ولا يُعضَد فيه شجر[٧]، ولا ينفر له

---

(١) البخاري في الرقاق (٦٥٣٠) ، ومسلم في الإيمان (٢٢٢/ ٣٧٩) .

(٢) في خ : « طمع هو بأن » ، وما أثبتناه من ح ، ق .

(٣) في ح : « لهم » ، وما أثبتناه من خ ، ق .

(٤) في خ : « رسول الله » ، وما أثبتناه من ح ، ق .

(٥) كشف الأستار (٢٨٤٧) ، وأحمد (٦/ ٤٥٠) ، وقال الهيثمي في المجمع: (١٠، ٧٠ ، ٧١) : « رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط ، ورجال أحمد رجال الصحيح، غير الحسن بن سوار، وأبي حلبس يزيد بن ميسرة وهما ثقتان ».

(٦) في ح، خ : « لبيته » ، وما أثبتناه من ق .

(٧) في ح : « يعضد به شجره » ، وما أثبتناه من خ ، ق .

صيد[١] ، ولا يختلى خلاه[٢] ، ولا تلتقط لقطته للتملك، بل للتعريف ليس إلا ، وجعل قصده مكفرا لما سلف من الذنوب ، ماحيا للأوزار، حاطا للخطايا ، كما في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من أتى هذا البيت ، فلم يرفث ، ولم يفسق ، رجع كيوم ولدته أمه»[٣] .

ولم يرض لقاصده من الثواب دون الجنة، ففي السنن من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ، قال : قال رسول الله ﷺ : « تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد، وليس للحج المبرور ثواب دون[٤] الجنة»[٥] .

وفي الصحيحين: عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة »[٦] .

ولو لم يكن البلد الأمين خير بلاد الله[٧] وأحبها إليه ، ومختاره من البلاد، لما جعل عرصاتها مناسك لعباده ، وفرض عليهم قصدها ، وجعل ذلك من آكد فروض الإسلام، وأقسم به في كتابه العزيز في موضعين منه ، فقال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ ﴾ [التين] وقال تعالى : ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ ﴾ [البلد]

---

(١) في ح : « ولا ينفر صيده » ، وما أثبتناه من خ ، ق .
(٢) في ح، خ : « خلاؤه » ، وما أثبتناه من ق .
(٣) البخاري في الحج (١٥٢١) ، ومسلم في الحج (١٣٥٠/ ٤٣٨) .
(٤) في ح: « إلا » ، وما أثبتناه من خ ، ق .
(٥) أحمد (١/ ٣٨٧) ، وقال الشيخ أحمد شاكر (٣٦٦٩) : « إسناده صحيح » ، والترمذي في الحج (٨١٠)، وقال : « حسن صحيح غريب » ، والنسائي في مناسك الحج (٢٦٣١) .
(٦) البخاري في العمرة (١٧٧٣) ، ومسلم في الحج (١٣٤٩/ ٤٣٧) .
(٧) في خ:«بلاده»، وما أثبتناه من ح ، ق .

وليس على وجه الأرض بقعة يجب على كل قادر السعي إليها ، والطواف بالبيت الذي فيها غيرها ، وليس على وجه الأرض موضع يشرع تقبيله واستلامه ، وتحط الخطايا والأوزار [عنده][(١)] غير الحجر الأسود والركن اليماني .

وثبت عن النبي ﷺ :أن الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة ، ففي النسائي والمسند: بإسناد صحيح ، عن عبد الله بن الزبير ، عن النبي ﷺ [أنه][(٢)]قال: « صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من صلاة في مسجدى هذا بمائة صلاة »[(٣)] ، ورواه ابن حبان في صحيحه.

وهذا صريح في أن المسجد الحرام أفضل بقاع الأرض على الإطلاق، ولذلك كان شد الرحال إليه فرضا، ولغيره إنما يستحب ولا يجب .

وفي المسند والترمذي والنسائي: عن عبدالله بن عدي بن الحمراء ، أنه سمع رسول الله ﷺ وهو واقف على راحلته بالْحَزْوَرَةِ[(٤)] من مكة ، يقول : «والله إنك لخيرُ أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت » قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح[(٥)] .

(١، ٢) ليس فى خ ، ق ، وما أثبتناه من ح .

(٣) أحمد (٤/ ٥) ، وابن حبان فى الإحسان (١٦١٨) ، والبيهقى فى الكبرى (٥/ ٢٤٦) ، والحديث أخرجه الحافظ ابن حجر فى التلخيص الحبير (٢٥٤٩) ولم يعزه للنسائى من طريق عبد الله بن الزبير .

(٤) الحزورة: موضع بمكة مرتفع عن الأرض؛ ولذا سمى بالحزورة التى هى فى الأصل: الرابية الصغيرة.

(٥) أحمد (٤/ ٣٠٥)، والترمذى فى المناقب (٣٩٢٥)، وقال : « حسن غريب صحيح »، والنسائى فى الكبرى فى الحج (٤٢٥٢) ، وابن ماجه فى المناسك (٣١٠٨) والدارمى فى السير (٢٥١٠) ، وصححه الشيخ الألبانى .

ومن خصائصها: كونها قبلة لأهل الأرض كلهم ، فليس [لله] [١] على وجه الأرض قبلة غيرها .

ومن خواصها أيضا: أنه يحرم استقبالها واستدبارها عند قضاء الحاجة ، دون سائر بقاع الأرض .

وأصح المذاهب في هذه المسألة : أنه لا فرق في ذلك بين الفضاء والبنيان لبضعة عشر دليلا قد ذكرت في غير هذا الموضع ، وليس مع المفرق ما يقاومها البتة ، مع تناقضهم في مقدار الفضاء والبنيان ، وليس هذا موضع استيفاء الحجاج من الطرفين .

ومن خواصها أيضا: أن المسجد الحرام أول مسجد وضع في الأرض كما في الصحيحين، عن أبي ذر قال : « سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع في الأرض؟ فقال : « المسجد الحرام » قلت : ثم أي ؟ قال : « المسجد الأقصى» قلت : كم بينهما ؟ قال : « أربعون عاما »[٢] .

وقد أشكل هذا الحديث على من لم يعرف المراد به ، فقال : معلوم أن سليمان ابن داود هو الذي بنى المسجد الأقصى ، وبينه وبين إبراهيم أكثر من ألف عام ، وهذا من جهل هذا القائل، فإن سليمان إنما كان له من المسجد الأقصى تجديده لا تأسيسه ، والذي أسسه هو يعقوب بن إسحاق صلى الله عليهما وسلَّم بعد بناء إبراهيم الكعبة بهذا المقدار.

مما يدل على تفضيلها: أن الله تعالى أخبر أنها أم القرى ، فالقرى كلها تبع لها، وفرع عليها وهي أصل[٣] القرى ، فيجب ألا يكون لها في القرى عديل ، وهذا كما

---

(١) ساقطة من المطبوع .

(٢) البخارى فى الأنبياء (٣٣٦٦) ، ومسلم فى المساجد، ومواضع الصلاة (١/٥٢٠) .

(٣) فى خ: « أفضل » ، وما أثبتناه من ح ، ق .

أخبر النبي ﷺ عن (الفاتحة) أنها أم القرآن[١]، ولذلك[٢] لم يكن في الكتب الإلهية لها عديل.

ومن خصائصها: أنها[٣] لا يجوز دخولها لغير أصحاب الحوائج المتكررة إلا بإحرام، وهذه خاصية[٤] لا يشاركها فيها شيء من البلاد، وهذه المسألة تلقاها الناس عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقد روي بإسناد لا يحتج به عن ابن عباس مرفوعا: «لا يدخل أحد مكة إلا بإحرام من أهلها ومن غير أهلها» ذكره أبو أحمد ابن عدي، ولكن الحجاج بن أرطاة بالطريق[٥]، وآخر قبله من الضعفاء[٦].

وللفقهاء في [هذه][٧] المسألة ثلاثة أقوال: النفيُ والإثبات، والفرق بين من هو داخل المواقيت، ومن هو قبلها، فمن قبلها لا يجاوزها إلا بإحرام، ومن هو داخلها حكمه[٨] حكم أهل مكة، وهذا قول أبي حنيفة. والقولان الأولان للشافعي وأحمد.

ومن خواصه: أنه يعاقب على الهم فيه بالسيئات، وإن لم يفعلها، قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج]، وتأمل كيف عدى فعل الإرادة هاهنا بالباء، ولا يقال: أردت بكذا إلا لما ضُمِّن معنى يهمّ، فإنه يقال: هممت بكذا، فتوعد من هم بأن يظلم فيه بأن يذيقه العذاب الأليم.

---

(١) أحمد (٢/ ٢٤١، ٢٤٢)، ومسلم في الصلاة (٣٩٥/ ٣٨)، وأبو داود في الصلاة (٨٢١)، والترمذي في تفسير القرآن، (٢٩٥٣)، والنسائي في الافتتاح (٩٠٩)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في ح: «ولهذا»، وما أثبتناه من خ، ق.

(٣) في ح: «أنه»، وما أثبتناه من خ، ق.

(٤) في خ: «خاصة»، وما أثبتناه من ح، ق.

(٥) في ح: «في الطريق»، وما أثبتناه من خ، ق.

(٦) الكامل في ضعفاء الرجال (٦/ ٢٧٣).

(٧) ليست في ح، ق، وما أثبتناه من خ.

(٨) في ح: «فله»، وما أثبتناه من خ، ق.

من هنا [١] تضاعف مقادير السيئات فيه لا كمياتها [٢] فإن السيئة جزاؤها سيئة، لكن سيئة كبيرة وجزاؤها مثلها، وصغيرة [٣] جزاؤها مثلها، والسيئة في حرم الله وبلده وعلى بساطه أكبر وأعظم منها في طرف من أطراف الأرض، ولهذا ليس من عصى الملك على بساط ملكه كمن عصاه في الموضع البعيد من داره وبساطه، فهذا فصل [٤] النزاع في تضعيف السيئات [فيه] [٥]، والله أعلم.

وقد ظهر سر هذا التفضيل والاختصاص فى انجذاب الأفئدة، وهوى القلوب وانعطافها، ومحبتها لهذا البلد الأمين، فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد، فهو أولى بقول القائل:

محاسِنُهُ هَيُولى [٦] كل حُسْنٍ [٧] ومَغْنَاطيسُ أفئدَةِ الرجالِ

ولهذا أخبر سبحانه أنه مثابة للناس، أي: يثوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار، ولا يقضون منه وطرا، بل كلما ازدادوا له زيارة، ازدادوا له [٨] اشتياقا.

لا يَرْجعُ الطَّرفُ عنْها حين يبصرها [٩] حتى يعود إليها الطَّرفُ مُشتاقا [١٠]

فلله كم لها من قتيل وسليب وجريح، وكم أنفق في حبها من الأموال

---

(١) فى ح، ق: «ومن هذا»، وفى خ: «ومن هنا».
(٢) فى ح: «كأمثالها»، وما أثبتناه من خ، ق.
(٣) فى خ، ق: «صغيرها»، وما أثبتناه من ح.
(٤) فى ق: «أفضل»، وما أثبتناه من ح، خ.
(٥) ساقطة من المطبوع.
(٦) الهَيُولَى: القُطْن، وشَبَّه الأوائلُ طينة العالم به.
(٧) فى خ: «جنس»، وما أثبتناه من ح، ق.
(٨) فى خ: «إليها»، وما أثبتناه من ح، ق.
(٩) فى خ: «ينظرها»، وما أثبتناه من ح، ق.
(١٠) فى ح: «يعود إليها وهو مشتاق»، وما أثبتناه من خ، ق.

والأرواح ، ورضي المحب بمفارقة فلذ الأكباد، والأهل ، والأحباب والأوطان ، مقدما بين يديه أنواع المخاوف والمتالف والمعاطف[١] والمشاق ، وهو يستلذ ذلك كله ، ويستطيبه ويراه - لو ظهر سلطان المحبة في قلبه - أطيب من نعيم المتحلية[٢] وترفههم[٣] ولذاتهم .

وليس محبا من يَعدُّ شقاءه عذابا إذا ما كان يرضى[٤] حَبيبُه

وهذا كله سر إضافته إليه سبحانه وتعالى بقوله : ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾[الحج:٢٦] فاقتضت هذه الإضافة الخاصة من هذا الإجلال والتعظيم والمحبة ما اقتضته ، كما اقتضت إضافته لعبده ورسوله إلى نفسه ، ما اقتضته من ذلك ، وكذلك إضافته[٥] عباده المؤمنين إليه كَسَتهم من الجلال والمحبة والوقار[٦] ما كستهم، فكل ما أضافه الرب تعالى إلى نفسه، فله من المزية والاختصاص على غيره ما أوجب له الاصطفاء والاختيار ثم يكسوه بهذه الإضافة تفضيلا آخر ، وتخصيصا وجلالة زائدا على ما له قبل الإضافة.

ولم يوفق لفهم هذا المعنى مَنْ سَوَّى بين الأعيان والأفعال ، والأزمان والأماكن ، وزعم أنه لا مزية لشيء منها على شيء، وإنما هو مجرد الترجيح بلا مرجح ، وهذا القول باطل بأكثر من أربعين وجها ، قد ذكرت في غير هذا الموضع .

ويكفي تصور هذا المذهب الباطل في فساده ، أن مذهبا يقتضي أن تكون ذوات

---

(١) في ح : « المعاطب »، وما أثبتناه من خ ، ق .

(٢) في ح : « المتحيلة » ، وما أثبتناه من خ ، ق .

(٣) في خ : « نعيم المتخلفين وترفهم »، وما أثبتناه من ح ، ق .

(٤) في خ : « إذا كان بما يرضى » ، وما أثبتناه من ح ، ق .

(٥) في خ : « إضافة » ، وما أثبتناه من ح ، ق .

(٦) في خ : «كستهم من المحبة والإجلال والوقار » ، وفي ح : « كسيتهم من الحياة من المحبة والجلال والوقار» والمثبت من ق .

الرسل كذوات أعدائهم في الحقيقة ، إنما التفضيل بأمر لا يرجع إلى اختصاص الذوات بصفات ومزايا لا تكون بغيرها [١]، وكذلك نفس البقاع واحدة بالذات ، ليس لبقعة على بقعة مزية البتة ، وإنما هو بما يقع فيها من الأعمال الصالحة ، فلا مزية لبقعة البيت والمسجد الحرام ومنى وعرفة ، والمشاعر على أي بقعة سميتها من الأرض ، وإنما التفضيل باعتبار أمر خارج عن البقعة لا يعود إليها ، ولا إلى وصف قائم بها.

والله سبحانه وتعالى قد رد هذا القول الباطل بقوله سبحانه تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [٢][الأنعام : ١٢٤] أي : ليس كل أحد أهلا ولا صالحا لتحمل رسالته [٣]، بل لها محال مخصوصة لا تليق إلا بها ولا تصلح [إلا] [٤]لهاوالله أعلم بهذه المحال منكم ولو كانت الذوات متساوية ، كما قال هؤلاء لم يكن في ذلك رد عليهم .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾[الأنعام] أي : هو سبحانه أعلم بمن يشكره على نعمته فيخصه بفضله ويَمُنّ عليه ممن [٥]لا يشكره ، فليس كل محل يصلح لشكره، واحتمال منته والتخصيص بكرامته.

فذوات ما اختاره الله واصطفاه من الأعيان والأماكن والأشخاص وغيرها

---

(١) في خ : « لغيرها » ، وما أثبتناه من ح ، ق .
(٢) في خ : « رسالاته » ، وما أثبتناه من ح ، ق .
(٣) في خ : « رسالاته » ، وما أثبتناه من ح ، ق .
(٤) ليست في ق ، وما أثبتناه من ح ، خ .
(٥) في خ : « بمن » ، وما أثبتناه من ح ، ق .

مشتملة على صفات وأمور قائمة بها ليست فى غيرها، ولأجلها اصطفاها[١] الله، وهو سبحانه الذي فضلها[٢] بتلك الصفات ، [فهو الذى أعطاها الصفات][٣]، وخصها بالاختيار ، فهذا[٤] خلقه وهذا اختياره ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص : ٦٨] .

وما أبين بطلان رأي يقتضي[٥] بأن مكان البيت الحرام مساو لسائر الأمكنة، وذات الحجر الأسود مساوية لسائر حجارة الأرض ، وذات رسول الله ﷺ مساوية لذات غيره ، وإنما التفضيل في ذلك بأمور خارجة عن الذات والصفات القائمة بها.

وهذه [الأمورو][٦] الأقاويل وأمثالها من الجنايات التي جناها المتكلمون على الشريعة ، ونسبوها إليها ، وهي بريئة منها ، وليس معهم أكثر من اشتراك الذوات في أمر عام ، وذلك لا يوجب تساويها في الحقيقة ؛ لأن المختلفات[٧] قد تشترك في أمر عام مع اختلافها في صفاتها النفسية، وما سَوَّى الله تعالى بين ذات المسك وذات البول أبدا، ولا بين ذات الماء وذات النار أبدا ، والتفاوت الذى بين الأماكن الشريفة وأضدادها ، والذوات[٨] الفاضلة وأضدادها أعظم من هذا التفاوت بكثير.

فبين ذات موسى عليه السلام وفرعون من التفاوت أعظم مما بين [ذات][٩] المسك

---

(١) فى خ : « اصطفاه » ، وما أثبتناه من ح ، ق .
(٢) فى خ : « خصها » ، وما أثبتناه من ح ، ق .
(٣) ساقط من المطبوع .
(٤) فى خ : « فهذه » ، وما أثبتناه من ح ، ق .
(٥) فى خ : « يقضى » ، وما أثبتناه من ح ، ق .
(٦) ليست فى ح ، ق، وما أثبتناه من خ .
(٧) فى خ : « المخلفات »، وما أثبتناه من ح ، ق .
(٨) فى خ : « الذات » ، وما أثبتناه من ح ، ق .
(٩) ساقطة من المطبوع .

والرجيع ، وكذلك التفاوت[١] بين نفس الكعبة وبين بيت السلطان[٢] أعظم من هذا التفاوت أيضا بكثير، فكيف تُجعل البقعتان سواء في الحقيقة[٣] والتفضيل باعتبار ما يقع هناك من العبادات الأذكار والدعوات ؟!

ولم نقصد استيفاء الرد على هذا المذهب المردود المرذول ، وإنما قصدنا تصويره وإلى اللبيب العاقل التحاكم ، ولا يعبأ الله وعباده بغيره شيئا ؛ والله سبحانه لا يخصص شيئا ، لا يفضله ويرجحه، إلا لمعنى يقتضي تخصيصه وترجيحه وتفضيله[٤]، نعم هو معطي ذلك المرجح ، وواهبه ، فهو الذي خلقه ثم اختاره بعد خلقه[٥] وربك يخلق ما يشاء ويختار .

ومن هذا تفضيله بعض الأيام والشهور على بعض ، فخير الأيام عنده يوم النحر ، وهو يوم الحج الأكبر، كما في السنن عنه ﷺ أنه قال : « أفضل الأيام عند الله يوم[٦] النحر، ثم يوم القَرِّ[٧] »[٨]. وقيل : يوم عرفة أفضل منه، وهذا هو المعروف عند أصحاب الشافعي ، قالوا: لأنه يوم الحج الأكبر وصيامه مكفر[٩] سنتين[١٠]،

---

(١) فى خ : « المتفاوت » ، وما أثبتناه من ح ، ق .

(٢) فى خ : « الشيطان » ، وما أثبتناه من ح ، ق .

(٣) فى ق : « حقيقة » ، وما أثبتناه من ح ، خ .

(٤) فى خ : « يفضله » ، وما أثبتناه من ح، ق .

(٥) فى خ : « جعله » ، وما أثبتناه من ح ، ق .

(٦) فى خ : «يوم عيد النحر» ، وما أثبتناه من ح ، ق .

(٧) فى جميع النسخ:«يوم النَّفْر» وهو خطأ، ويوم القَرّ، كما قال ابن الأثير (٥/ ٩٣ قرر): «هو الغَدُ من يوم النحر، وهو حادى عشر ذى الحجة، لأن الناس يقرّون فيه بمنىً، أى: يسكنون ويقيمون» .

(٨) أحمد (٤/ ٣٥٠) ، وأبو داود فى الحج (١٧٦٥) ، وابن حبان فى الموارد (١٠٤٤) ،و الحاكم فى المستدرك (٤/ ٢٢١) ، وقال : « صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى ، وقال الشيخ الألبانى فى الإرواء (١٩٥٨) « قلت : وهذا إسناد رجاله كلهم ثقات » .

(٩) فى خ : « يكفر » ، وما أثبتناه من ح ، ق .

(١٠) مسلم فى الصيام (١١٦٢/ ١٩٦) .

وما من يوم يعتق الله فيه الرقاب أكثر منه في يوم عرفة[١]، ولأن الله سبحانه وتعالى يدنو فيه من عباده، ثم يباهي ملائكته بأهل الموقف.

والصواب القول الأول؛ لأن الحديث الدال على ذلك لا يعارضه شيء يقاومه، والصواب أن يوم الحج الأكبر هو يوم النحر لقوله تعالى: ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ ﴾[التوبة: ٣].

وثبت في الصحيحين: أن أبا بكر وعليا رضي الله عنهما أذنا بذلك يوم النحر لا يوم عرفة[٢].

وفي سنن أبي داود بأصح إسناد أن رسول الله ﷺ قال: «يوم الحج الأكبر يوم النحر»[٣].

وكذلك[٤] قال أبو هريرة وجماعة من الصحابة، ويوم عرفة مقدمة[٥] ليوم النحر بين يديه، فإن فيه يكون الوقوف والتضرع والتوبة والاستقالة، ثم يوم النحر، تكون الوفادة والزيارة، ولهذا سمي طوافه: طواف الزيارة: لأنهم قد طهروا من ذنوبهم يوم عرفة، ثم أذن لهم يوم النحر في زيارته والدخول عليه إلى بيته، ولهذا كان فيه ذبح القرابين، وحلق الرؤوس، ورمي الجمار، ومعظم أفعال الحج، وعمل يوم عرفة: كالطهر. والاغتسال بين يدي[٦] هذا اليوم.

وكذلك تفضيل عشر ذي الحجة على غيره من الأيام، فإن أيامه أفضل الأيام

---

(١) مسلم في الحج (١٣٤٨/ ٤٣٦)، والنسائي في المناسك (٣٠٠٣)، وابن ماجه في المناسك (٣٠١٤).

(٢) البخاري في التفسير (٤٦٥٥)، ومسلم في الحج (١٣٤٧/ ٤٣٥).

(٣) أبو داود في المناسك (١٩٤٥)، والبخاري في الحج معلقا تحت رقم (١٧٤٢)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٥٨)، وصححه الشيخ الألباني.

(٤) في ح: «بذلك»، وما أثبتناه من خ، ق.

(٥) في ق: «مقدم»، وما أثبتناه من ح، خ.

(٦) في ح: «يديه»، وما أثبتناه من خ، ق.

عند الله ، وقد ثبت في صحيح البخاري: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ: « ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام العشر»، قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : « ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله، ثم [١] لم يرجع من ذلك بشيء » [٢]وهي الأيام العشر التي أقسم الله بها في كتابه بقوله : ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾[الفجر] .

ولهذا يستحب فيها الإكثار من التكبير والتهليل والتحميد ، كما قال النبي ﷺ: «فأكثروا فيهن من التكبير والتهليل والتحميد» [٣]، ونسبتها إلى الأيام كنسبة مواضع المناسك إلى سائر البقاع .

ومن ذلك: تفضيل شهر رمضان على سائر الشهور ، وتفضيل العشر [٤]الأخير على سائر الليالي، وتفضيل ليلة القدر فيه على ألف شهر.

فإن قلت : أي العشرين أفضل؟ عشر ذي الحجة أم [٥] العشر الأخير من رمضان ؟ وأي الليلتين أفضل ؟ ليلة القدر أو ليلة الإسراء ؟

قلت : أما السؤال الأول ، فالصواب فيه أن يقال : ليالي العشر الأخير من رمضان أفضل من ليالي عشر ذي الحجة ، وأيام عشر ذي الحجة أفضل من أيام عشر رمضان ، وبهذا التفصيل يزول الاشتباه ، ويدل عليه أن ليالي العشر من رمضان إنما

---

(١) في ح : « فلهم »، وما أثبتناه من خ ، ق .

(٢) البخاري في العيدين (٩٦٩) نحوه ، وبلفظه رواه أبو داود في الصوم (٢٤٣٨) ، والترمذي في الصوم (٧٥٧) ، وابن ماجه في الصيام (١٧٢٧) ، كلهم عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) الطبراني في الكبير (١١/ ٨٢، ٨٣) (١١١١٦) ، وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٢٠، ٢١) : « رواه الطبراني في الكبير ، ورجاله رجال الصحيح» .

(٤) في ح، خ : « عشره » ، وما أثبتناه من ق .

(٥) في خ : « أو » ، وما أثبتناه من ح ، ق .

فضل[١] باعتبار ليلة القدر ، وهي من الليالي، وعشر ذي الحجة إنما فضل باعتبار أيامه إذ فيه يوم النحر ، ويوم عرفة، ويوم التروية .

وأما السؤال الثاني، فقد سأل شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ عن رجل ، قال : ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر ، وقال آخر : بل ليلة القدر أفضل، فأيهما مصيب؟ .

فأجاب[٢] : الحمد لله ، أما القائل أن ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر: إن أراد بذلك أن تكون الليلة التي[٣] أسري فيها بالنبي ﷺ ونظائرها من كل عام أفضل لأمة محمد ﷺ من ليلة القدر بحيث يكون قيامها والدعاء فيها أفضل منه في ليلة القدر ، فهذا باطل ، لم يقله أحد من المسلمين وهو معلوم الفساد بالاطراد من دين الإسلام ، هذا إذا كانت[٤] ليلة الإسراء تعرف عينها، فكيف ولم يقم دليل معلوم لا على شهرها، ولا [على][٥] عشرها ولا عينها، بل النقول في ذلك منقطعة[٦] ، ليس فيها ما يقطع به ولا يشرع للمسلمين تخصيص الليلة التي يظن أنها ليلة الإسراء بقيام ولا غيره بخلاف ليلة القدر ، [فإنه قد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه»[٧] .

وفي «الصحيحين » عنه ﷺ : « تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من

---

(١) في ح : « أفضل » ، وما أثبتناه من خ ، ق .
(٢) في خ: « فالجواب » ، وما أثبتناه من ح ، ق .
(٣) في ح : « الذى » ، وما أثبتناه من خ ، ق .
(٤) في ح : « كان » ، وما أثبتناه من خ ، ق .
(٥) ليست في ح ، ق ، وما أثبتناه من خ .
(٦) في ح : « مختلفة » ، وما أثبتناه من خ ، ق .
(٧) البخارى فى الصوم (١٩٠١) ، ومسلم فى صلاة المسافرين وقصرها (٧٥٩/ ١٧٣) .

رمضان»[١]][٢]. وقد أخبر سبحانه أنها خير من ألف شهر وأنه أنزل فيها القرآن.

وإن أراد أن الليلة المعينة التي أسري فيها بالنبي ﷺ، وحصل له فيها ما لم يحصل له في غيرها، من غير أن يشرع تخصيصها بقيام ولا عبادة، فهذا صحيح، وليس إذا أعطى الله نبيه ﷺ فضيلة في مكان أو زمان، يجب أن يكون ذلك المكان، أو الزمان أفضل من جميع الأمكنة والأزمنة، هذا إذا قدر أنه قام دليل على أن إنعام الله تعالى على نبيه ليلة الإسراء كان أعظم من إنعامه عليه بإنزال القرآن ليلة القدر، وغير ذلك من النعم التي أنعم الله عليه.

والكلام في مثل هذا يحتاج إلى علم بحقائق الأمور، ومقادير النعم التي لا تعرف إلا بوحي، ولا يجوز لأحد أن يتكلم فيها بلا علم، ولا يعرف عن أحد من المسلمين أنه جعل[٣] لليلة الإسراء فضيلة على غيرها، لاسيما على ليلة القدر، ولا كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان يقصدون تخصيص ليلة الإسراء بأمر من الأمور، ولا يذكرونها، ولهذا لا يعرف أي ليلة كانت، وإن كان الإسراء من أعظم فضائله ﷺ ومع هذا فلم يشرع تخصيص ذلك الزمان، ولا ذلك المكان بعبادة شرعية، بل غار حراء الذي ابتدئ فيه بنزول الوحي، فكان يتحراه قبل النبوة لم يقصده هو ولا أحد من الصحابة بعد النبوة مدة مقامه بمكة، ولا خص اليوم الذي أنزل فيه الوحي بعبادة ولا غيرها، ولا خص المكان الذي ابتدئ فيه بالوحي ولا الزمان بشيء.

ومن خص الأمكنة والأزمنة من عنده بعبادات لأجل هذا وأمثاله كان من جنس أهل الكتاب الذين جعلوا زمان أحوال المسيح مواسم وعبادات، كيوم

---

(١) البخاري في فضل ليلة القدر (٢٠١٧)، ومسلم في الصيام (١١٦٩/ ٢١٩).

(٢) في المطبوع تقديم وتأخير بين الحديثين واختلاف ألفاظ العبارات، والمثبت كما في النسخ المخطوطة.

(٣) في خ: «نقل»، وما أثبتناه من ح، ق.

الميلاد ، ويوم التعميد وغير ذلك من أحواله .

وقد رأى عمر بن الخطاب ﷺ جماعة يتبادرون مكانا يصلون فيه ، فقال : ما هذا ؟ قالوا: مكان صلى فيه رسول الله ﷺ فقال : أتريدون أن تتخذوا آثار أنبيائكم مساجد ؟ ! إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، فمن أدركته فيه الصلاة فليصل ، وإلا فليمض[١] .

وقد قال بعض الناس : إن ليلة الإسراء في حق النبي ﷺ أفضل من ليلة القدر ، وليلة القدر بالنسبة إلى الأمة أفضل من ليلة الإسراء ، فهذه الليلة في حق الأمة أفضل لهم ، وليلة الإسراء في حق رسول الله ﷺ [أفضل له][٢].

فإن قيل : فأي اليومين[٣] أفضل : يوم الجمعة ، أو يوم عرفة ؟ فقد روى ابن حبان في صحيحه: من حديث أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تطلع الشمس [ولاتغرب]على يوم أفضل من يوم الجمعة»[٤] ، وفيه أيضا حديث أوس[٥] ابن أوس:«خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة »[٦] .

[قيل][٧] : قد ذهب بعض العلماء إلى تفضيل يوم الجمعة على يوم عرفة ، محتجا بهذا الحديث ، وحكى القاضي أبو يعلى رواية ، عن أحمد أن ليلة الجمعة أفضل من ليلة القدر ، والصواب أن يوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع ، ويوم عرفة ويوم النحر

---

(١) مشكاة المصابيح (٢٣٧) ، وإصلاح المساجد (٢٠٥) .

(٢) ليست في ح ، ق ، ك ، م وأثبتناه من خ .

(٣) في خ : « فأيهما » ، وما أثبتناه من ح ، ق .

(٤) ابن حبان في الإحسان (٢٧٥٩)، وما بين المعقوفين منه .

(٥) في النسخ المخطوطة : «تميم » والصواب ما أثبتناه من أبي داود والترمذي.

(٦) مسلم في الجمعة (٨٥٤/ ١٧، ١٨) ، وأبو داود في الصلاة (١٠٤٦) ، والترمذي في أبواب الصلاة (٤٨٨) .

(٧) ليست في: ح ، ق ، وما أثبتناه من خ .

أفضل أيام العام ، وكذلك ليلة القدر وليلة الجمعة ، ولهذا كان لوقفة الجمعة يوم عرفة مزية على سائر الأيام من وجوه متعددة:

أحدها :اجتماع اليومين اللذين هما أفضل الأيام .

الثانى :أنه [١]اليوم الذي فيه ساعة محققة الإجابة ، وأكثر الأقوال أنها آخر ساعة بعد العصر ، وأهل الموقف كلهم إذ ذاك واقفون للدعاء والتضرع .

الثالث :موافقته ليوم وقفة رسول الله ﷺ.

الرابع :أن فيه اجتماع الخلائق فى أقطار الأرض للخطبة وصلاة الجمعة ، ويوافق [٢]ذلك اجتماع أهل عرفة [يوم عرفة] [٣]بعرفة ، فيحصل من اجتماع المسلمين في مساجدهم وموقفهم من الدعاء والتضرع ما لا يحصل في يوم سواه .

الخامس :أن يوم الجمعة يوم عيد ويوم عرفة يوم عيد لأهل عرفة ، ولذلك كره لمن بعرفة صومه ، وفي النسائي عن أبي هريرة ﷺ، قال : « نهى رسول الله ﷺ عن صوم يوم عرفة بعرفة» [٤]، وفي إسناده نظر ، فإن مهدي بن حرب العبدى [٥]ليس بمعروف ، مداره عليه ، ولكن ثبت في الصحيح من حديث أم الفضل « أن ناسا تماروا عندها يوم عرفة في صيام رسول الله ﷺ، فقال بعضهم : هو صائم ، وقال بعضهم : ليس بصائم فأرسلت إليه بقدح لبن، وهو واقف على بعيره فشربه» [٦] .

---

(١)فى ق : « أن » ، وما أثبتناه من ح ، خ .

(٢)فى خ : « موافق » ، وما أثبتناه من ح ، ق .

(٣)ساقطة من المطبوع .

(٤)النسائى فى الكبرى فى الصيام (٢٨٣٠) ، وأبو داود فى الصوم (٢٤٤٠) ، وابن ماجه فى الصوم (١٧٣٢) ، وأحمد (٢/ ٣٠٤) ، وقال الشيخ أحمد شاكر (٨٠١٨) : « إسناده صحيح».

(٥)فى ح : « الجزرى » والصواب ما أثبتناه من تهذيب التهذيب ١٠/ ٣٢٤ .

(٦)البخارى فى الصوم (١٩٨٨) ، ومسلم فى الصيام (١١٢٣/ ١١٠).

وقد اختلف في حكمة استحباب فطر يوم عرفة [بعرفة] [١].

فقالت طائفة : ليتقوى على الدعاء وهذا قول الخرقي وغيره .

قال غيرهم[٢] - منهم شيخ الإسلام ابن تيمية : الحكمة فيه[٣] أنه عيد لأهل عرفة ، فلا يستحب صومه لهم ، قال : والدليل عليه الحديث الذي في السنن عن النبى ﷺ أنه قال : « يوم عرفة ويوم النحر وأيام منى عيدنا أهل الإسلام»[٤] .

قال شيخنا: وإنما يكون يوم عرفة عيدا في حق أهل عرفة لاجتماعهم فيه بخلاف أهل الأمصار، فإنهم إنما يجتمعون يوم النحر ، فكان هو العيد في حقهم، والمقصود أنه إذا اتفق يوم عرفة ويوم الجمعة[٥] فقد اتفق عيدان معا .

السادس : أنه موافق ليوم إكمال الله تعالى دينه لعباده المؤمنين ، وإتمام نعمته عليهم ، كما ثبت في صحيح البخاري عن طارق بن شهاب قال : جاء [رجل][٦] يهودى إلى عمر بن الخطاب، فقال : يا أمير المؤمنين، آية تقرؤونها في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت ، ونعلم ذلك اليوم الذي نزلت فيه، لاتخذناه عيدا ، قال : أي آية ؟ قال :﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[المائدة : ٣] ، فقال عمر بن الخطاب : إني لأعلم اليوم الذي نزلت[٧] فيه ، والمكان الذي نزلت فيه، [نزلت][٨] على رسول الله ﷺ يوم جمعة ، ونحن واقفون

---

(١) ليست فى ح ، ق ، ك ، م وما أثبتناه من خ .

(٢) فى ح : « غيره » ، وما أثبتناه من خ ، ق .

(٣) فى ح : « فى ذلك » ، وما أثبتناه من خ ، ق .

(٤) أبو داود فى الصوم (٢٤١٩)، والترمذى فى الصوم (٧٧٣)، وقال : « حسن صحيح »، والنسائى فى مناسك الحج (٣٠٠٤) ، وأحمد (٤/ ١٥٢) ، وصححه الشيخ الألبانى .

(٥) فى خ : « جمعة »، وما أثبتناه من ح ، ق .

(٦) ليست فى خ ، ق ، ك ، م وما أثبتناه من ح .

(٧) فى ح : « أنزلت »، وما أثبتناه من خ ، ق .

(٨) ليست فى ح ، ق وما أثبتناه من خ .

معه بعرفة[١].

السابع: أنه موافق ليوم الجمع الأكبر، والموقف الأعظم يوم القيامة، فإن القيامة[٢] تقوم يوم الجمعة، كما قال النبي ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل[٣] الجنة، وفيه أخرج منها، وفيه تقوم الساعة، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله خيرا إلا أعطاه إياه»[٤].

ولهذا شرع الله سبحانه وتعالى لعباده يوما يجتمعون فيه، فيذكرون المبدأ والمعاد، والجنة والنار، وادخر الله تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة، إذ فيه كان المبدأ، وفيه المعاد.

ولهذا كان النبي ﷺ يقرأ في فجره سورتي (السجدة) و(هل أتى على الإنسان)[٥]؛ لاشتمالهما على ما كان، وما يكون في هذا اليوم من خلق آدم، وذكر المبدأ والمعاد، ودخول الجنة والنار، وكان يذكر الأمة في هذا اليوم بما كان فيه، وما يكون، فهكذا[٦] يتذكر الإنسان بأعظم مواقف الدنيا - وهو يوم موقف عرفة - الموقف الأعظم بين يدي الرب سبحانه في هذا اليوم بعينه، ولا يتنصف حتى يستقر أهل الجنة في منازلهم، وأهل النار في منازلهم.

الثامن: أن الطاعة الواقعة من المسلمين يوم الجمعة [وليلة الجمعة][٧] أكثر منها في سائر الأيام، حتى إن أكثر أهل الفجور ليحترمون يوم الجمعة وليلته، ويرون أن

---

(١) البخاري في الإيمان (٤٥).

(٢) في ح: «الساعة»، وما أثبتناه من خ، ق.

(٣) في ق: «دخل»، وما أثبتناه من ح، خ، ق.

(٤) مسلم في الجمعة (٨٥٤/ ١٧، ١٨)، وأبو داود في الصلاة (١٠٤٦)، والترمذي في أبواب الصلاة (٤٨٨).

(٥) أحمد (٣/ ٢٣٤)، والبخاري في الجمعة (٨٩١)، ومسلم في الجمعة (٨٨٠/ ٦٥)، وأبو داود في الصلاة (١٠٧٤)، والترمذي في أبواب الصلاة (٥٢٠)، والنسائي في الافتتاح (٩٥٥، ٩٥٦).

(٦) في ق: «فلهذا»، وما أثبتناه من ح، خ.

(٧) ليست في خ، ق، ك، م، وما أثبتناه من ح.

من تجرأ فيه على معاصي الله عز وجل ، عجل الله [له][١] عقوبته ، ولم يمهله ، وهذا أمر قد استقر عندهم ، علموه بالتجارب ، وذلك لعظم اليوم وشرفه عند الله ، واختيار الله سبحانه له من بين سائر الأيام ، ولا ريب أن للوقفة فيه مزية على غيره .

التاسع : أنه موافق ليوم المزيد في الجنة، وهو اليوم الذي يجتمع فيه أهل الجنة في واد أفيح، وتنصب لهم منابر من لؤلؤ ، ومنابر من ذهب، ومنابر من زبرجد وياقوت على كثبان المسك، فينظرون إلى ربهم تبارك وتعالى[٢] ، ويتجلى لهم فيرونه عيانا، ويكون أسرعهم موافاة أعجلهم رواحا إلى المسجد ، وأقربهم منه أقربهم من الإمام ، فأهل الجنة يشتاقون[٣] إلى يوم المزيد فيها لما ينالون فيه من الكرامة ، وهو يوم الجمعة ، فإذا وافق يوم عرفة كان له مزية واختصاص ، وفضل ليس لغيره .

العاشر : [إنه][٤] يدنو الرب تبارك وتعالى عشية يوم عرفة من أهل الموقف، ثم يباهي بهم الملائكة ، فيقول : « ما أراد هؤلاء، أشهدكم أني قد غفرت لهم »[٥]، ويحصل مع دنوه منهم تبارك وتعالى ساعة الإجابة التي لا يرد فيها سائلا يسأله خيرا ، فيقربون منه بدعائه ، والتضرع إليه في تلك الساعة ، ويقرب منهم تبارك وتعالى نوعين من القرب.

أحدهما : قرب الإجابة المحققة في تلك الساعة .

والثاني : قربه الخاص من أهل عرفة ، ومباهاته بهم ملائكته ، فتستشعر قلوب

---

(١) ليست في خ ، ق ، ك ، م وما أثبتناه من ح .

(٢) رواه الشافعي في الأم (٤٧٠) بنحوه، وقال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء (١/ ٢١١): «رواه الشافعي في المسند، والطبراني في الأوسط، وابن مردويه في التفسير بأسانيد ضعيفة مع اختلاف».
و«أفيح» : أي : واسع .

(٣) في خ : « مشتاقون » ، وما أثبتناه من ح ، ق .

(٤) ليست في ح ، ق ، وما أثبتناه من خ .

(٥) مسلم في الحج (١٣٤٨/ ٤٣٦) .

أهل الإيمان هذه الأمور ، فتزداد قوة إلى قوتها ، وفرحا وسرورا وابتهاجا ورجاء لفضل ربها وكرمه.

فلهذه[١] الوجوه وغيرها فضلت وقفة الجمعة على غيرها . وأما ما استفاض على ألسنة العوام بأنها تعدل ثنتين وسبعين حجة ، فباطل لا أصل له عن رسول الله ﷺ ، ولا عن أحد من الصحابة والتابعين ، والله أعلم .

فصل

[والمقصود][٢] أن الله سبحانه وتعالى اختار من كل جنس من أجناس المخلوقات أطيبه، فاختصه لنفسه ، ارتضاه دون غيره ، فإنه تعالى طيب لا يحب إلا الطيب ، لا يقبل من العمل والكلام والصدقة إلا الطيب ، فالطيب من كل شيء هو مختاره تعالى .

وأما خلقه تعالى فعام للنوعين ، وبهذا يعلم عنوان سعادة العبد وشقاوته ، فإن الطيب لا يناسبه إلا الطيب ، ولا يرضى إلا به ، ولا يسكن إلا إليه ، ولا يطمئن قلبه إلا به ، فله من الكلام[٣] الكَلِم الطيب الذي لا يصعد إلى الله شيء إلا هو ، وهو أشد شيء نفرة عن الفحش في المقال ، والتفحش واللسان[٤] البذيء، والكذب، والغيبة ، والنميمة، والبهت ، وقول الزور ، وكل كلام خبيث .

---

(١) في ح : « فهذه » ، وما أثبتناه من خ ، ق .
(٢) ليست في ح ، ق ، وما أثبتناه من خ .
(٣) في خ : « الكَلم » ، وما أثبتناه من ح ، ق .
(٤) في ح : « في اللسان »، وما أثبتناه من خ ، ق .

وكذلك لا يألف من الأعمال إلا أطيبها ، وهي الأعمال التي اجتمعت على حسنها الفطر السليمة مع الشرائع النبوية ، وزكتها العقول الصحيحة ، فاتفق على حسنها الشرع والعقل والفطرة ، مثل أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا، ويؤثر مرضاته على هواه ، ويتحبب إليه بجهده [وطاقته] (١)، ويحسن إلى خلقه ما استطاع ، فيفعل بهم ما يحب أن يفعلوه به ، و [يعاملهم بما يحب أن] (٢) يعاملوه به، ويدعَهم بما يحب (٣) أن يَدَعُوه منه، وينصحهم بما ينصح به نفسه ، ويحكم لهم بما يحب أن يحكم له به ، ويحمل أذاهم ، ولا يحملهم أذاه ، ويكف عن أعراضهم، ولا يقابلهم بما نالوا من عرضه ، وإذا رأى لهم حسنا أذاعه ، وإذا رأى سيئا كتمه ، ويقيم أعذارهم ما استطاع فيما لا يبطل شريعة، ولا يناقض لله أمرا ولا نهيا، وله من الأخلاق أيضا أطيبها ، وأزكاها، كالحلم ، والوقار، والسكينة،والرحمة، والصبر ، والوفاء، وسهولة الجانب ، ولين العريكة، والصدق، وسلامة الصدر من الغل والغش والحقد والحسد ، والتواضع ، وخفض الجناح لأهل الإيمان والعزة (٤) والغلظة على أعداء الله ، وصيانة الوجه عن بذله وتَذَلله لغير الله ، والعفة، والشجاعة ، والسخاء ، والمروءة ، وكل خلق اتفقت على حسنه الشرائع والفطر والعقول .

وكذلك لا يختار من المطاعم إلا أطيبها ، وهو الحلال الهنيء المرىء الذي يغذي البدن والروح أحسن تغذية، مع سلامة العبد من تبعته .

وكذلك لا يختار من المناكح إلا أطيبها، ومن الرائحة إلا أطيبها وأزكاها ، ومن

---

(١) ليست فى خ ، ق ، وما أثبتناه من ح .

(٢) ساقط من المطبوع .

(٣) فى خ : « مما » ، وما أثبتناه من ح ، ق .

(٤) فى خ : « العز » ، وما أثبتناه من ح ، ق .

الأصحاب والعشراء [إلا][1] الطيبين منهم ، فروحه طيبة ، وبدنه طيب ، وخلقه طيب ، وعمله طيب ، وكلامه طيب ، ومطعمه ومشربه وملبسه ومنكحه ، ومدخله ومخرجه ومنقلبه ومثواه كله طيب ، هذا ممن قال الله تعالى فيه : ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النحل]، ومن الذين يقول لهم خزنة الجنة : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾[الزمر] وهذه الفاء تقتضي السببية، أي : بسبب طيبكم ادخلوها .

وقال تعالى : ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [النور : ٢٦]

وقد فسرت الآية[2] بأن الكلمات الخبيثات للخبيثين ، والكلمات الطيبات للطيبين ، وفسرت بأن النساء[3] الطيبات للرجال الطيبين ، والنساء الخبيثات للرجال الخبيثين ، وهي تعم ذلك وغيره ، فالكلمات والأعمال والنساء الطيبات لمناسبها[4] من الطيبين ، والكلمات والأعمال والنساء الخبيثة لمناسبها[5] من الخبيثين.

والله سبحانه وتعالى جعل الطيب بحذافيره[6] في الجنة ، وجعل الخبيث بحذافيره في النار، فجعل الدور ثلاثة : دارا أخلصت للطيب ، وهي حرام على غير الطيبين، وقد جمعت كل طيب، وهي الجنة، ودارا أخلصت للخبيث[7] والخبائث، ولا يدخلها إلا الخبيثون ، وهي النار ، ودارا مزج[8] فيها الطيب والخبيث ، وخلط

---

(١) ليست فى ق، وما أثبتناه من ح ، خ .
(٢) فى ح : « فسر الآيات » ، وما أثبتناه من خ ، ق .
(٣) فى خ : « فسرت بالنساء » ، وما أثبتناه من ح ، ق .
(٤ ، ٥) فى خ : « لمناسبيها » ، وما أثبتناه من ح ، ق .
(٦) فى خ : « بحذافره » ، وما أثبتناه من ح ، ق .
(٧) فى خ : « للخبث » ، وما أثبتناه من ح ، ق .
(٨) فى ح : « امتزج » ، وما أثبتناه من خ ، ق .

بينهما ، وهي هذه الدار ، ولهذا وقع الابتلاء والمحنة بسبب هذا الامتزاج والاختلاط ، وذلك بموجب[١] الحكمة الإلهية.

فإذا كان يوم معاد الخليقة، ميز الله الخبيث من الطيب ، فجعل الطيب وأهله في دار على حدة لا يخالطهم غيرهم ، وجعل الخبيث وأهله في دار على حدة لا يخالطهم غيرهم فعاد الأمر إلى داريـن فقط : الجنة وهي دار الطيبين ، والنار وهي دار الخبيثين.

وأنشأ الله سبحانه من أعمال الفريقين ثوابهم وعقابهم ، فجعل طيبات أقوال هؤلاء وأعمالهم وأخلاقهم هي عين نعيمهم ولذاتهم.

و أنشأ لهم منها أكمل أسباب النعيم والسرور ، وجعل خبيثات أقوال الآخرين وأعمالهم وأخلاقهم هي عين عذابهم وآلامهم، فأنشأ لهم منها أعظم أسباب العذاب[٢] والآلام، حكمة بالغة، وعزة قاهرة، ليري عباده كمال ربوبيته ، وكمال حكمته ، وعلمه، وعدله ، ورحمته ، وليعلم أعداؤه أنهم كانوا هم الكاذبين المفترين لا رسله البررة الصادقون .

قال [الله][٣] تعالى : ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [النحل] .

والمقصود أن الله - سبحانه وتعالى - جعل على السعادة والشقاوة عنوانا يعرفان به ، فالسعيد طيب لا يليق به إلا طيب ، ولا يأتي إلا طيبا ، ولا يصدر منه إلا

---

(١) في ح ، خ : « موجب » ، وما أثبتناه من ق .
(٢) في خ : « العقاب »، وما أثبتناه من ح ، ق .
(٣) ليست في خ ، ق وما أثبتناه من ح .

طيب ، ولا يلابس [١] إلا طيبا ، والشقي خبيث لا يليق به إلا الخبيث ، ولا يأتي إلا خبيثا ، ولا يصدر منه إلا الخبيث ، فالخبيث [٢] يتفجر من قلبه الخبث على لسانه وجوارحه، والطيب يتفجر من قلبه [٣] الطيب على لسانه وجوارحه ، وقد يكون في الرجل [٤] مادتان ، فأيهما غلب عليه كان من أهلها .

فإن أراد الله به خيرا طهره من المادة الخبيثة قبل الموافاة [٥] [فيوافيه] [٦] يوم اللقاء مطهرا، فلا يحتاج إلى تطهيره بالنار ، فيطهره منها بما يوفقه [٧] له من التوبة النصوح ، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة ؛ حتى يلقى الله وما عليه خطيئة ، ويمسك عن الآخر مواد التطهر [٨] ، فيلقاه يوم القيامة بمادة خبيثة [ومادة طيبة] [٩] ، وحكمته تعالى تأبى أن يجاوره أحد في داره بخبائثه ، فيدخله النار طهرة له وتصفية وسبكا ، فإذا خلصت سبيكة إيمانه من الخبث صلح حينئذ لجواره ، ومساكنة الطيبين من عباده .

وإقامة هذا النوع من الناس في النار على حسب سرعة زوال تلك الخبائث منهم وبطئها ، فأسرعهم زوالا وتطهيرا أسرعهم خروجا ، وأبطؤهم أبطؤهم [خروجا] [١٠] ، جزاء وفاقا، وما ربك بظلام للعبيد .

---

(١) في خ : « يلبس »، وما أثبتناه من ح ، ق .
(٢) في خ : « فالخبث»، وما أثبتناه من ح ، ق .
(٣) في خ : « قلب » ، وما أثبتناه من ح ، ق .
(٤) في خ : « الشخص » ، وما أثبتناه من ح ، ق .
(٥) في ح : « الوفاة » ، وما أثبتناه من خ ، ق .
(٦) ليست في ق ، والمثبت من خ ، وفي ح : « فيوافيه فيه » .
(٧) في ح : «يوافقه » ، وما أثبتناه من خ ، ق .
(٨) في خ : « التطهير »، وما أثبتناه من ح ، ق .
(٩) ليست في ق ، والمثبت من ح ، خ .
(١٠) ليست في خ ، ق ، وما أثبتناه من ح .

ولما كان المشرك خبيث العنصر ، خبيث الذات ، لم تطهر النار خبثه ، بل لو خرج منها عاد[١] خبيثا كما كان ، كالكلب إذا دخل البحر ثم خرج منه ، فلذلك حرم الله تعالى على المشرك[٢] الجنة.

ولما كان المؤمن الطيب المطيب مبرأً من الخبائث ، كانت النار حراما عليه ، إذ ليس فيه ما يقتضي تطهيره بها ، فسبحان من بهرت حكمته العقول والألباب، وشهدت فطر عباده وعقولهم بأنه أحكم الحاكمين ، ورب العالمين ، [لا إله إلا هو][٣] .

فصل

ومن هاهنا يعلم اضطرار العباد فوق كل ذى ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به ، وتصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر ، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ، ولا في الآخرة إلا على أيدي[٤] الرسل ، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم ، ولاينال رضا الله البتة إلا على أيديهم.

فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاؤوا به ، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال ، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال ، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه[٥] والعين إلى نورها ، والروح إلى حياتها، فأي ضرورة وحاجة فرضت ، فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير ، وما ظنك بمن

---

(١) فى خ: « لعاد » ، وما أثبتناه من ح ، ق .
(٢) فى ق: « عليه » ، وما أثبتناه من ح ، خ .
(٣)ليس فى خ ، ق ، ك ، م وما أثبتناه من ح .
(٤) فى ق : « يدى » ، وما أثبتناه من ح ، خ .
(٥)فى ق : « الروح » ، وما أثبتناه من ح ، خ .

إذا[١] غاب عنك هديه ، وما جاء به طرفةَ عين ، فسد قلبك ، وصار كالحوت إذا فارق الماء ، ووضع في المِقْلَى، فحال العبد عند مفارقة[٢] قلبه لما جاء به الرسول ، كهذه الحال ، بل أعظم، لكن لا يحس بهذا إلا قلب حيٌّ و:

ما لجرح بِمَيِّت إيلام[٣]

وإذا كانت سعادة [العبد في][٤] الدارين معلقة[٥] بهدي النبي ﷺ، فيجب على كل من نصح نفسه ، وأحب نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به ، ويدخل به في عداد[٦] أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقل ، ومستكثر ، ومحروم ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

فصل

وهذه كلمات يسيرة لا يستغني عن معرفتها من له أدنى همة إلى معرفة نبيه ﷺ وسيرته وهديه اقتضاها الخاطر المكدود على عُجَرِه وبُجَرِه مع البضاعة المزجاة التي لا تفتح لها أبواب السُّدد ، ولا يتنافس فيها المتنافسون مع تعليقها في حال سفر لا

---

(١) في خ : « إن » ، وما أثبتناه من ح ، ق .

(٢) في خ : « مفارقته »، وما أثبتناه من ح ، ق .

(٣) عجز بيت للمتنبي (شرح ديوانه ٤/ ٢١٧) ومطلعه:

من يَهُنْ يَسْهُل الهوانُ عليه

(٤) ليس في خ ، ق ، وما أثبتناه من ح .

(٥) في خ : « متعلقة » ، وما أثبتناه من ح ، ق .

(٦) أي : على عيوبه والعُجَر: العروق المتعقدة في الجسد أو الظهر. والبُجَر: العروق المتعقدة في البطن خاصة .

إقامة ، والقلب بكل واد منه شعبة ، والهمة قد تفرقت شَذَر مَذر[١] ، والكتاب مفقود ، ومن يفتح باب العلم لمذاكرته[٢] معدوم غير موجود ، فعود العلم النافع الكفيل بالسعادة قد أصبح ذاويا ، ورَبْعه[٣] قد أوحش من أهله ، وعاد منهم خاليا ، فلسان العالم قد ملئ بالغلول مضاربة لغلبة الجاهلين ، وعادت موارد شفائه ، وهي معاطبه ؛ لكثرة المنحرفين والمحرِّفين[٤] فليس له مُعَوَّل إلا الصبر الجميل ، وما له ناصر ولا معين إلا الله وحده ، وهو حسبه ونعم الوكيل .

---

(١) في ق : « شذرًا مذرًا » وتفرقت شَذَر مَذَر، أي ذهبت في كل وجه.

(٢) في ق : « مذاكرته » ، وما أثبتناه من ح ، خ .

(٣) الرَّبْع: مَحَلَّة القوم ومنزلهم .

(٤) في خ : « المخرفين » ، وما أثبتناه من ح ، ق .